الاســـلام والحياة

للاستاذ عبد الكـريم الخطيب

لا يمكن أن يكون الدين شيئا إلا اذا تأثر به اصحابه ، وتأثرت به حياتهم التى يحيونها ، وكانت حياتهم تلك ثمرة من ثمرات الدين ووحيا من وحيه .

فليس الدين حلية يتزين بها ، وتعرض فى معرض المباهاة والفخر !

وليس الدين مجموعة من المراسيم والتعاليم يظهر بها المتدينون ويؤدونها فى أوقات محددة ومواسم معلومة .

إنما الدين فى صميمه مبادىء موجهة ، وتعاليم خلاقة ، وأحكام ملزمة تعيش فى ضمير الإنسان وتستقر فى كيانه وتسيطر على اتجاهات تفكيره ومنازع رأيه ؛ فلا يصدر فى قول أو عمل الا عنها وفى حراسة منها .

ان هذه المبادىء ، وتلك الأحكام والتعاليم التى يشرحها الدين لأتباعه انما هى لون من ألوان المعرفة ، وضرب من ضروب الثقافة ولن تصبح هذه المعارف دينا الا اذا اتصلت بالعقل ، وخالطت الشعور وامتزجت بالوجدان ، وحينئذ تصبح قوة عامله مؤثره فى الجهاز التفكيرى للانسان ، وفى اتجاه ميوله وعواطفه . ومن ثم يكون الدين قوة من قوى التوجيه الى الغايات التى يحددها ويشير اليها . . وبهذا تكون أوامره ونواهيه قوى عاملة فى الحياة ونوازع دافعة للخير والاصلاح .

فالدين عقيدة فى الضمير ، وأسلوب فى الحياة . ومنهج فى العمل . فاذا لم يكن

كذلك لم يكن دينا ، وإنما يكون شيئا أشبه بالمعلومات العامة التي يرددها بعض الطلاب دون أن يفقهوا لها معنى أو يدخلوها في حساب المعارف التي ينتفعون بها في الحياة . وإنما حسبهم منها أن يجوزوا بها الامتحان وأن يصلوا بها إلى مؤهل دراسي يضعهم بين أصحاب المؤهلات .

وكثير من المسلمين على هذه الصورة . . لا يعرف من الإسلام إلى مراسيم يؤديها . وعبارات يرددها امتثالا لأوامر الدين . دون أن يدرك شيئا مما لهذه المراسيم الدينية . وهذه الأحكام والتعاليم من قيمة عملية في بناء حياته وحياة المجتمع الذي يعيش فيه .

إن طبيعة الناس أن يزنوا الأشياء بميزان النفع الذي يعود عليهم منها . وبقدر ما يكون في الشيء (سواء أكان فكرة أم مادة) من نفع بقدر ما يكون حرصهم عليه ولهفتهم نحوه . وتعرفهم على كل صغيرة وكبيرة فيه .

وإذا كان الأمر كذلك فإن من حق ديننا علينا ومن حق دنيانا أيضا أن ننظر فيما في الإسلام من حقائق . وما شرع من مناهج وأن نخرج بهذه الحقائق وتلك المناهج عن المجال النظري الذي ظلت تدور فيه قرونا طويلة حتى أنهكها هذا الدوران وأجهدها ـ نخرج بها إلى واقع الحياة ومجال التجربة لنرى قيمتها في البناء ، وأثرها في النجاح الذي هو رغبة الناس وطلبة الجماعات والأفراد .

فهذا الاختبار العملي لحقائق الإسلام وتعاليمه هو الذي يكشف لنا عن قوة هذا الدين . وهو الذي يدفع عن كثير من العقول ما علق بها من دعاوى باطلة وتهم ظالمة زعزعت مكان الدين في القلوب : ونزلت بمنزلته في النفوس .

إن بين ديننا ودنيانا هوة سحيقة وأمادا واسعة . . فنحن نعيش في دنيانا بغير دين . ونقيم ديننا بغير دنيا . . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول ان لنا حياتين، حياة دينية لها تفكيرها ، ولها عواطفها ومشاعرها وحياة أخرى دنيوية لها عواطفها ومشاعرها أيضا ،

فالمسلم الذي لا يعرف حقيقة الإسلام ، وكثير ما ذلك الرجل ، يجعل في نفسه

للدين حسابا خالصا من كل ما يعالج فى حياته من أعمال وشئون : كما يجعل الدنياه حسابا خاصا خالصا من كل ما فى دينه من حقائق وتعاليم .

ويؤدى المسلم الصلاة لأنها شىء من دينه ولا يكاد يلتفت إلى مالها من أثر فى حياته ، ولو التفت إلى شىء من ذلك لغدا إلى المسجد وفى حسابه أنه سيلتقى بمجتمع يضم ألوانا مختلفة من الناس ، وأن فى هذا فرصة طيبة يستطيع أن يتعرف فيها على بعض الناس وأن يوثق صلته بهم ، وأن يتبادل النفع العقلى والمادى معهم . ثم لكان فى حسابه أيضا أنه بهذه الصلاة سيطهر نفسه من آثام ارتكبها وذنوب اقترفها . وتلك فرصة يحاسب فيها نفسه عما كان منه من زلات وسقطات فى حق نفسه أو حق مجتمعه . . ذلك فضلا عن أنه أطاع ربه وامتثل ما أمر الله به .

تلك هى الصلاة أو بعض الصلاة فى شريعة الاسلام (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) انها ليست ركوعا وسجود وحسب ؛ وانما هى تزكيه نفس : وتطهير قلب ، وتنقية ضمير .

ويصوم المسلم رمضان على أنه أمر من الله وجبت طاعته وحق امتثاله ونعم . . ولكنه لو أراد أن ينتفع بدينه فى مجال الحياة لعرف أن الصوم معركة ، تجربة على لقاء الشدائد واجتياز الأزمات ، وما كثر ما فى الحياة من شدائد وما أكثر ما يلقى المرء فيها من أزمات . فالصوم من هذه الناحيه إعداد لمواجهة الخطر قبل وقوعه ، وامتحان قبل أن تجىء ساعه الامتحان .

هذا هو الصوم أو بعض الصوم ، ليس جوعا وعطشا وإنما هو جمال خلق واستقامة سلوك . . ومن لم يدع قول الزور والبهتان فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه .

كل ما تعبد نا به الدين يجب أن ننتفع به فى الدنيا ، وأن تظهر آثاره العلمية فى حياتنا وإلا كان الدين شيئا ثقيلا لا تخف النفس إلى أدائه ، ولا تنشط إلى الاستجابة له ، ثم يصبح مع الأيام . . لاشىء ! وحينئذ يتصرف المرء فى شئون دنياه بمعزل عن الدين . . فلا يتمثل له الدين إن أحس به - إلا فى صورة باهته هزيلة تتراقص كما تتراقص الخيالات والأوهام .

ولو عرف المسلم حقيقة دينه لرفع هذه الحواجز القائمة فى نفسه بين دينه ودنياه ، ولجعل من الدين قوة تمنحه القدرة والاحتمال فى معركة الحياة !

وفى الاسلام منافذ كثيرة ينفذ منها الدين إلى الدنيا . . فمثلا العمل فى نظر الإسلام عبادة والسعى فى طلب الرزق عبادة!

فانظر إذا أقبل الإنسان على عمله فى تجارة أو صناعة أو زراعة أو وظيفة من وظائف الدولة ، وملء جنبيه يقين بأنه وهو يؤدى هذا العمل انما هو فى عبادة الله ، عبادة دائمة لا تنقطع مادام قائما فى عمله ـ انظر كيف يجد الانسان بهذا الاحساس لذة فى العمل ونشاطا مضاعفا لا يجد أبدا أولئك الذين يؤدون العمل على أنه عمل وحسب ، ولا يشعر به أبدا أولئك الذين يؤدون أعمالهم لحساب غيرهم نظير أجر يتناولونه . . إنهم يعملون مكرهين ، ويتحركون مسخرين . . لا يحسنون عملا ، ولا يعنيهم أن يحسنوا عملا .

فى زمهرير الشتاء وتحت وابل المطر أو فى لفح الهجير ووقدة الشمس لا ينقطع الناس عن العمل ، وانما يهرعون اليه بدافع الحياة ومطالب الحياة ، ولكن ما أكثر ما يفيض فى نفوسهم فى تلك الحال من مرارة ، وما يجرى على ألسنتهم من همسات السخط والتبرم بالحياة الجافة الكادحه . . ومالهم لم يكونوا من الأغنياء الذين لا يركبون هذه المراكب الخشنة فى سبيل لقمة العيش ؟

افتظن أن هؤلاء المتسخطين المتكرهين يعطون العمل حقه ؟ ثم أتراهم يجدون للحياة طعما وللطمأنينة والاستقرار سبيلا ؟ . . كلا ثم كلا . .

إن الذى يهون من هذا كله ، ويحيل عسره يسرا وشدته لينا وقسوته رحمة هو هذا الشعور الذى يجده المسلم الفاقه لدينه . وهو إنما يعمل ليعيش وليعيش من معه . وأنه فى ميدانه هذا ليس دون المجاهد فى سبيل الله ان هذا الشعور هو الذى يضاعف فى نفسه ثمرات العمل التى يجنيها من عمله والتى لا تقف عندما ينال فى هذه الحياة . بل ان له أجرا مدخرا عند الله .

هذه نافذة واحدة من نوافذ كثيرة يمكن أن نصل بها الدين بالدنيا ، فإذا الدين معنى ، وإذا الحياة طعم ، والعمل أكثر من ثمرة .

ان مذاهبنا فى الحياة مبعثرة مضطربة لأننا نعيش وفى أنفسنا تيار آن منفصلان تيار للدين . وتيار للدنيا : تياران مادافعان ، كل منهما يريد أن يحل الآخر عن مكانه . . وأحسن المسلمين حالا من يستطيع أن يضبط الحواجز التى تفصل دينه عن دنياه . فيجرى كل تيار فى سبيله : أما هذا الذى يستطيع أن يزوا فى نفسه بين الدين والدنيا ويقيم منهما معاقوة دافعة فذلك من النادر القليل .

والاسلام فى حقيقته لا يعرف فواصل ولا يعترف بحواجز تقوم بين الدين والدنيا فكل ماقى الاسلام من تعاليم وأحكام وكل ماضمن من الأوامر والنواهى إنما هى دستور الحياة التى نحياها على هذه الأرض وانما هى منهج العمل والبناء لما ينبغى أن نعمل ونبنى .

وقد لا يرضى بعض المسلمين عن هذا الرأى . ولا يرون فى مبادىء الاسلام وفى تعاليمه الدستور الكامل . والمنهج القويم لبناء حياتهم ولاساء قواعد المجتمع الذى يعيشون فيه على الوجه الذى يقتضيه العصر . وتقوم عليه دعائم الأمم القوية الراقية .

. وأنا لا أظلم هؤلاء الناس . ولا أقول انهم أعداء الأسلام ولادعاة الحاد ، وإنما أقول انهم لم يدرسوا الأسلام . ولم يتعرفوا على حقيقته ، وإنما يرددون ما يراه بعض المفكرين وأصحاب الآراء والمذاهب من الأوربيين كالأمريكيين فى الدين بوجه عام .

وإذ كنت لا أريد أن أظلم هؤلاء المتجنين على الإسلام فان من الإنصاف للاسلام أن ندعو هؤلاء المتنكرين له والمنكرين عليه صلاحيته للحياة ، أن يحصروا طائفة من تعاليم الإسلام وأحكامه كما نزل بها القرآن أو جاءت بها السنة دون أن يلتفتوا إلى ما دخل على هذه التعاليم والاحكام من تعليقات وشروح . ثم ليضعوا كل حكم وكل حقيقة موضع الاختبار العملى فى الحياة . وليحاولوا أن يقارنوا بينها وبين غيرها من المبادى القائمة فى الحياة الأمم الراقية اليوم ، فان وجدوا (بعد البحث النزيه والنظر الدقيق) أنها ليست أحكم ما يمكن أن يصل إليه البشر . فلهم بعد هذا أن يؤمنوا به . أو لا يؤمنوا .